

الفصل الثامن

ثقافة النصف الثانى من عصر إيدو

١ - انتشار التعليم بين عامة الشعب :

انتشر التعليم فى الفترة الأخيرة من عصر إيدو معتمدا على مدارس المعابد (Terakoya) أى المدارس الصغيرة التى كانت تقام فى المعابد، وقد تميزت هذه المدارس عن المدارس العادية التى تم إنشاؤها بعد ذلك فى عصر مييجى بأنها كانت لا تمتلك برنامجا موحدا للدراسة ولكن كان الدرس يقام على ما يعن للراهب أو الساموراى الذى كان يلقي الدرس، وكذلك لم يكن التعليم بها إلزامى كما فى مدارس العصر الحديث، وكان التلاميذ يبدأون الدراسة بها منذ سن السابعة أو الثامنة من عمرهم، وكان الهدف الأساسى من تلقى التعليم فى هذه المدارس هو القدرة على القراءة والكتابة وذلك حتى يستطيع عامة الشعب قراءة الفرمانات التى تصدر من الحكام.

ولم يقتصر إقامة هذا النوع من المدارس فى المعابد فقط، فقد كان يمكن إقامتها فى المنازل أيضا إذا كان عدد التلاميذ لا يزيد على ثلاثين طفلا أما تلك التى كانت يزيد عدد تلاميذتها على المائتى تلميذ فكانت أقرب إلى أن تكون مدرسة ابتدائية ذات نطاق صغير مما نعرفه هذه الأيام، وفى الحالة الثانية كان لابد من تخصيص مكان كبير مستقل لعقد مثل هذه المدارس.

وكان التلاميذ يدرسون في السنوات الثلاث الأولى الحروف الهجائية البسيطة من اللغة اليابانية المعقدة، وكذلك القراءة البسيطة وإلى جانب ذلك كانوا يدرسون العمليات الحسابية البسيطة من جمع وطرح وضرب مستخدمين في ذلك آلة حاسبة خشبية تسمى سوروبان (Soroban) وذلك حتى يستطيعوا استخدامها في الحياة اليومية.

وأما التلاميذ الأكبر سنا فقد كانوا يحصلون على قدر ما من المعارف الجغرافية والتاريخية ومعلومات عن التجارة، وذلك لأن كثيرا من الأطفال كانوا أبناء تجار ولذلك كان عليهم أن يتحصلوا على معلومات ومعارف يمكن تطبيقها في الحياة اليومية وفي أعمالهم التجارية بعد تخرجهم في مدارس المعابد وذلك عندما يبلغون سن الثانية أو الثالثة عشرة من عمرهم، وفي الحقيقة فقد لعبت مدارس المعابد دورا كبيرا في رفع مستوى التعليم لعامة الشعب، ويفضل هذه المدارس أصبح انتشار التعليم بين جموع الشعب من أكبر النسب في العالم آنذاك، وكان لهذا المستوى من التعليم وانتشاره أثره الإيجابي في نهضة مييجي التي تلت عصر إيدو.

وليس معنى أن يتخرج المواطن في مدارس المعابد أنه بذلك يكون قد أنهى دراسته تماما، بل إن الكثيرين كانوا يستمرون في الدراسة بعد التخرج فيما عرف بدراسة الحياة أو الدراسة الأخلاقية (Shingaku)، ولما كان عسيرا على المواطن العادي دراسة العلوم والمبادئ الكونفوشيوسية التي كان يدرسها المحاربون، فكان أن أتيح لهم دراسة هذا العلم الذي يمكن تشبيهه بمادة التربية الأخلاقية في أيامنا هذه.

وقد كان المفكر إيشيدا بايجان (Ishida Baigan) (١٦٨٥م - ١٧٤٤م)

الذى عاش فى زمن الشوجون العظيم يوشيمونى هو أول من بدأ فى تدريس هذا النوع من العلوم، وقد عمل بايجان منذ الصغر فى بيت تاجر من تجار كيوطو، ولذلك استطاع أن يعايش حياة التجار ويحصل على خبرات كثيرة عن طريقة حياتهم، ومن هذه الخبرات أدرك أهمية الاقتصاد والتقشف وأهمية الصدق فى التعامل مع الآخرين والاجتهاد فى العمل بلا ملل.. وقد جعل بايجان تطبيق هذه المبادئ فى حياة التجار توازى أعمال القديسين، وعمل بجد من أجل إيصال هذه الفكرة إلى عقول التجار.

ومما جعل من أفكار بايجان تنتشر بسهولة ويسر بين التجار وغيرهم من عامة الشعب أنه كان يستخدم أسلوب الحكاية والأحاديث فى تعليم تلاميذه وطلابه، وإلى جانب ذلك فقد مضى الزمن عن أفكار عصر مثل عهد جنروكو الذى كان كل ما يهم الناس خلاله هو أن يتمتعوا فقط بحياتهم وبدلا من ذلك تفجرت لدى التجار معانى جديدة فى نفوسهم وذلك بإدراك ما بذاتهم من قدرات وإمكانات.

وقد وصل عدد المدارس التى تقوم بتدريس تعاليم إيشيدا بايجان الأخلاقية إلى مائتى مدرسة فى منطقة غرب اليابان وحدها (كيوطو - أوساكا وما حولهما من مدن) وذلك بفضل المجهود الوافر لتلميذه تشيما طوآن Teshima Toan (١٧١٨م - ١٧٨٦م)، وواصل جهود طوآن فى توصيل هذه التعاليم والأفكار ليس فقط إلى سكان المدن والتجار ولكن أيضا للفلاحين والمحاربين والحكام المفكر ناكازاوا ضونى Nakazawa Dōni (١٧٢٥م - ١٨٠٣م) ثم سرعان ما انتشرت هذه المدارس الأخلاقية فى منطقة شرق اليابان وشمال شرقها.

وقد استغل المستشار ماتسودايرا سادانوبو هذه التعاليم الأخلاقية فى تطبيق إصلاح كانسى وذلك لحث الفلاحين على العمل بجهد وعدم الخروج على الحاكم أو الثورة عليه ، وكذلك فعل بعض الداييميووات الذين شجعوا على دراسة هذه التعاليم وذلك من أجل تنفيذ سياساتهم. ولكن كان لهذا التشجيع والاستغلال من جانب الحكام للمدارس الأخلاقية أثره فى فقدان هذه المدارس وتعاليمها مغزاها الأصيل فى كونها نابعة من الشعور الإنسانى البحت لسكان المدن ، فأصبحت مجرد تعاليم ودروس تأتى من علية القوم أو الحكام لعامة الشعب ، ولذلك شهدت سقوطا سريعا فى نهاية عصر إيدو وبداية عصر مييجى.

وفى مدينة أوساكا أيضا أقيمت مدارس لتلقى سكانها التعليم فيها وذلك أثناء ثورة كيوهو الإصلاحية (١٧١٦م - ١٧٣٦م) وقد قام على إدارة هذه المدارس أصحاب السطوة من سكان المدينة ، ومن بين الأساتذة العظام الذين قاموا بالتدريس فى هذه المدارس العالم الكونفوشيوسى ناكاي تشيكوزان Nakai Chikuzan (١٧٣٠م - ١٨٠٤م) وغيره العديد من العلماء المدنيين.

وفى مدارس أوساكا تمتع الطلاب بقدر كبير من الحرية وسهولة التعليم الذى قد لا يجدونه فى الكونفوشيوسية الجديدة التى كان يدرسها المحاربون ، وما يدل على هذه الليونة التعليمية تلك المادة الأولى من قانون أشهر مدرسة بأوساكا والتى كتبت على الحائط وجاء بها ما يلى : «إن التعليم شىء هام جدا لجعل عمل البيت رائع ولذلك يمكنكم الحضور إلى المدرسة بدون إحضار الكتب المقررة ، وكذلك يمكنكم الخروج أثناء الدرس فى الحالات الضرورية» هكذا عكست هذه المادة

طبيعة الحياة العملية التجارية التي تمتعت بها مدينة أوساكا منذ القدم، وكانت هذه المدرسة بحق مناسبة لهذه الطبيعة العملية.

ومن بين العلماء العظام الذى درس فى مدرسة أوساكا العالم الموسوعى ياماجاتا بانتو Yamagata Bantō (١٧٤٨م - ١٨٢١م)، هذا العالم استطاع إخراج موسوعة من اثنى عشر جزءا وذلك فى عام ١٨٢٠م أى قبل وفاته بعام واحد، هذه الموسوعة ضمت موضوعات عدة فلكية وجغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وغيرها، وتطرق من خلال موسوعته هذه التى أسماها «بدل الحلم Yumenoshiro» إلى شرح نظرية دوران الأرض حول نفسها وشرح نظرية الإلحاد أو عدم وجود الإله بل وعدم وجود الأرواح وغيرها من الموضوعات التى اعتبرت حساسة للغاية آنذاك، وتعتبر أفكار وكتابات ياماجاتا ذات أهمية كبيرة لدراسة تاريخ الفكر اليابانى، ويعتبر ياماجاتا فى تفكيره هذا نموذجا للتفكير الذى يستحوذ على سكان المدن حيث كان ينظر للأشياء بطريقة منطقية بحتة أى إنه كان ينظر للأشياء كما هى عليه ولا يفكر فى الغيبيات.

أما الساموراي فقد كان لهم مدارس خاصة بهم أيضا وكانت هذه المدارس تسمى بمدارس المقاطعات (Hanko)، وما زال هناك العديد من هذه المدارس باقية بأسمائها القديمة مثل مدرسة يونيزاوا للمحاربين فى محافظة ياماجاتا (Yonezawakōjōkan) ومدرسة فوكوياما بمحافظة هيروشيما (Fukuyama Seishi kan) وغيرهما، وكذلك فإن المدارس الخاصة التى كان يديرها الساموراي وتدعى جوكو Juku فقد تحول العديد منها بعد تطويرها إلى جامعات حكومية وأخرى خاصة مثل مدرسة شوهيزاكا التى أقامتها حكومة الباكفو فقد تحولت لكى تصبح

جامعة طوكيو، وتحولت مدارس المقاطعات لتصبح بالتالى الجامعات التى يمكن تعريفها بالجامعات المحلية ، وقد أقيمت مدارس المقاطعات وذلك من أجل أن يتعلم بها أولاد الساموراي ، ولذلك فقد كان الطابع الغالب عليها الطابع العسكرى والدراسة الغالبة هى دراسة الكونفوشيوسية نظرا لارتباط هذه الديانة بالعقيدة العسكرى للساموراي ، وفيما بعد تم تبنى دراسة علم اللغة اليابانى وذلك بعد تنامى الحس الوطنى ومحاولة إحلال كل ما هو يابانى بدلا من العلم الصينى وتعاليم الصين وكذلك تم استخدام العلم الهولندى أى العلوم التى جاء بها الهولنديون مثل الطب وغيره . وبشكل عام كل العلوم الغربية .

أما الفلاحون فقد كان لهم مدارس خاصة بهم أيضا سميت بمدارس القرى أو الريف (Gōgaku)، وكانت أشهر مدرسة تمثل هذ النوع من المدارس هى مدرسة شيزوتانى كو Shizutanikō التى أسسها حاكم مقاطعة أوكاياما فى عام ١٦٨٨م، وبنيت فى عصر جنروكو فى عام ١٧٠١م، ويُعد مبناها أقدم مبنى تعليمى موجود حتى الآن فى اليابان.

٢- انتعاش الدراسات اليابانية :

فى بداية عصر إيدو كانت العلوم الصينية ممثلة فى الكونفوشيوسية هى السائدة فى اليابان ، ودرس اليابانيون بنهم النصوص الصينية (Kanbun) ومن خلالها درسوا الأدب والتاريخ الصينيين ، ولكن منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر بدأت الدراسات اليابانية ممثلة فى التاريخ والأدب اليابانيين فى الانتعاش ، وقد أطلق على هذه الدراسات اسم (العلوم القومية Kokugaku) وبرغم ذلك فقد كان للراهب كيتشو Keichu الذى عاش فى الفترة الأولى من عصر إيدو الفضل فى بداية هذه

الدراسات بكتاب ضخم أصدره عن أقدم وأطول مجموعة شعر يابانية تدعى المانيوشو، وذلك في عام ١٦٨٨م.

وبقدوم القرن الثامن عشر ظهر علماء آخرون بحثوا بجد في الدراسات اليابانية ونشروها في البلاد، ومن أشهرهم كادا نوازومامارو Kadano Azumamaro (١٦٦٩م - ١٧٣٦م) وكامونو مابوتشي Kamono Mabuchi (١٦٩٧م - ١٧٦٩م) وقد اشتهر الثاني بأنه كان أستاذاً لأشهر عالم لغوى في تاريخ اليابان وهو موطو أورى نوري ناجا Motori Nori Naga (١٧٣٠م - ١٨٠١م) وتتنح أهمية نوري ناجا من كونه أول من بحث المظهر والروح الحقيقية لليابانيين من خلال دراسة النصوص الأدبية القديمة، فقد كانت الدراسات اليابانية منذ عهد كيتشو الذى ذكرناه للتو وحتى مابوتشى أستاذ نوري ناجا تحاول فقط شرح النصوص والأعمال الأدبية القديمة أو الاستمتاع بإنشاد الشعر اليابانى التقليدى الذى يسمى أوكا Waka ولم تغوص فى أعماق هذه النصوص الأدبية لاستخراج الروح اليابانية، وقد انصب اهتمام نوري ناجا الأكبر على دراسة أقدم كتاب تاريخ فى اليابان كتب فى عام ٧١٢ ميلادية واسمه الكوجيكي «Kojiki» وهذا الكتاب يحتوى على العديد من الأساطير وحكايات الآلهة، وقد قام نوري ناجا بشرح وتفسير لهذا الكتاب القديم وذلك فى أربعة وأربعين مجلداً سماه كوجيكي دن «Kojikiden» وأنجزه تماماً فى عام ١٧٩٨م ولكن تم إصداره فى عام ١٨٢٢م، وقام نوري ناجا كذلك بشرح لواحدة من أطول وأشهر الروايات اليابانية وهى جنجى مونوجاتارى Genjimonogatari والتي كتبت فى أوائل القرن الحادى عشر، واستخرج من هذين العمليين عدة معانى جميلة يمتاز

بها الشعور اليابانى آنذاك، ومن أهم هذه المعانى تعبير مونونوأوى رى Mononoaware وهى تعنى النفس الهادئة الطيبة أو ذلك الشعور، ويذكر نورى ناجا أن اليابانيين الذين ظهروا على مسرح الكوجيكى كانوا ذوى صورة هادئة تميل إلى الطبيعة الجميلة، وهؤلاء اليابانيون لم يكونوا قد تأثروا بعد بأديان مثل الكونفوشيوسية أو البوذية، ويعتبر نورى ناجا أن هذه السمة هى أقدم ما يميز الروح اليابانية، وهى أروع روح فى العالم كله.

ويتضح من هذا الاعتقاد لدى نورى ناجا مدى حنينه الجارف للماضى واعتباره أفضل بكثير من الحاضر الذى عاشه، وهذا شىء غير غريب خاصة إذا ما اطلعنا على الأحوال التى كانت عليها اليابان حينما عاش نورى ناجا، حيث عاش هذا العالم الجليل عصر تانوما وحتى إصلاح كانسى اللذين تحدثنا عنهما فيما سبق، وقد عانى نورى ناجا من المجاعة ورأى بعينيه العديد والعديد من الثورات والهوجات، فكان من الطبيعى أن يشعر بالحنين لماض لم يعانى فيه اليابانيون من تلك الويلات والكوارث فكانت نفوسهم راضية وهانئة بالطبع.

هكذا رفع نورى ناجا من شأن القيم القديمة (Kodō). ولكن تلميذه هيراتا أتسوتانى Hirata Atsutane (١٧٧٦م - ١٨٤٣م) طور هذه الفكرة من مجرد كونها فكرة فلسفية تاريخية إلى جعلها فكرة سياسية لتكون أساساً لمبدأ سياسى هام سوف يكون السبب الرئيسى فى هدم وسقوط حكومة الباكفو وهو ما عرف فى التاريخ اليابانى «بتوقيع الإمبراطور وطرده الأجنبى» (Sonnō Jōi) بمعنى توحيد اليابان تحت إمرة الإمبراطور الذى يمثل القيم القديمة ورفض الضغوط الأجنبية التى

ظهرت في أواخر عصر إيدو ويمكن للقارئ الكريم أن يطلع بالتفصيل عن هذا المبدأ السياسي من خلال كتابنا السابق «تاريخ اليابان في عصر مييجي».

وهكذا استطاع العالم اللغوي هيراتا أتوتاني أن يجعل من علم اللغة اليابانية فكريا سياسيا ساهم بدور كبير في حركة إسقاط الباكفو (Tōbaku undō) بل واستعادة الإمبراطور لسلطاته القديمة (Ouseifukko) أو استعادة طرق وقيم الآلهة القديمة (Fukko Shintō) أى القيم التي تقوم على ما قدمته الأعمال الأدبية القديمة دون أن يخلط معها أية أفكار كونفوشية أو بوذية، ومن أهم تلك الأفكار اليابانية القديمة تلك التي تعتبر اليابان بلد الآلهة أماتراسو أونوكامى (Ama Terasuonokam) هي إلهة الشمس، وعليه فإن إمبراطور اليابان وهو سليل هذه الآلهة والآلهة اليابانية الأخرى جميعا هو في الحقيقة إله في شكل إنسان (Ara hitogami) وعليه فيكون له الحق وكل الحق في حكم البلاد والقبض على السلطات بها.

وذلك بدلا من حكومة الباكفو العسكرية التي اغتصبت ذلك الحق منه منذ عهد إيباسو وقبله إلى حد ما عصر أسرة أشيكاجا (Ashikaga) أو ما عرف أيضا بعصر موروماتشى (١٣٩٢م - ١٥٧٣م) وفي الحقيقة أنه ليس هيراتا وأستاذه نورى ناجا وحدهما من ناديا بهذا المبدأ. ولكن نادى به أول من نادى العالم اللغوى كادانو أزوما مارو (Kadano Azumamoro) (١٦٦٩م - ١٧٣٦م) ثم نادى به أيضا كامونو مابوتشى وهو أستاذ نورى ناجا، ولكن يرجع الفضل إلى تطوير هذه الفكرة وبلورتها في شكل سياسى إلى هيراتا اتوتانى.

والطريف فى علاقة هيراتا بنورى ناجا أنه تعلم على كتاباته ولكن كان ذلك بعد موت الثانى فأصبح من مريدى نورى ناجا بعد الموت وأطلق عليه لقب «مريد بعد الموت».

وقد كان تأثير أتسوتانى فى الكثير من اليابانيين عميقا حيث إنهم رأوه يفكر ويعمل بجد من أجل إيجاد السبل التى تعدل بناء اليابان مرة أخرى حتى تتصدى للتحديات الداخلية والخارجية التى تواجهها، وكان نتيجة لهذا التأثير والإعجاب بهذا الرجل المؤمن بوطنه أن تزايد عدد مريديه وخاصة فى الريف، وأصبح عدد هؤلاء بعد موته يزيد على ألفى شخص آمنوا بأفكاره.

ومن علماء اللغة الذين أدلوا بدلوهم أيضا من أجل البحث فى الأدب اليابانى القديم العالم الضرب هاناوا هوكى إيتشى Hanawa Hokiichi (١٧٤٦م - ١٨٢١م) وقد تلقى هذا العالم العون من حكومة الباكفو واستطاع إنشاء مركز لإلقاء محاضرات عن الشعر اليابانى التقليدى «وكا waka» وكذلك استطاع تجميع الأعمال الأدبية القديمة وإلى جانب ذلك كانت إسهاماته فى أبحاث علم التاريخ والأدب اليابانى بارزة.

٣ - تطور العلوم الغربية :

كان لمحاربة المسيحية وتحريمها فى اليابان وكذلك إقرار سياسة العزلة أثره البالغ فى إعاقة العلوم وتدنى المعارف وتحصيلها، ولكن كان هناك متنفس واحد فى اليابان استطاع من خلاله طالبو المعرفة والعلوم الغربية الحصول عليها من خلاله، وكان هذا عن طريق الهولنديين الذين سمحت لهم حكومة الباكفو بالمعيشة والتجارة فى جزيرة دشيما بنجاساكي، وكانت الريادة فى تحصيل العلم الهولندى

Rangaku للجغرافى والفلكى نيشيكاوا جوكن Nishikawa Joken (١٦٤٨م - ١٧٢٤م). وقد أصدر نيشيكاوا فى عام ١٦٩٥م كتابا مهما من جزئين عن الأحوال الجغرافية ومنتجات وتجارة الصين ومختلف الدول الآسيوية وكذلك عن مختلف الدول الغربية ومنتجاتها وتجارها أيضا (Kaitsushoko) ثم أعاده إصداره فى عام ١٧٠٨م فى خمسة أجزاء بعد تنقيحه وزيادته.

وفى عام ١٧٠٨م زار عالم الكونفوشيوسية والسياسى أراى هاكوسيكى المبشر بالمسيحية الإيطالى سيدوتى Siddotti (١٦٦٨م - ١٧١٤م) فى محبسه بعد أن تم القبض عليه فى جزيرة ياكوشيما التى تقع فى محافظة كاجوشيما وأرسل بعدها إلى إيدو. وفى هذه الزيارة استعلم أراى من سيدوتى عن الديانة المسيحية وعن أحوال العالم وجغرافيته، وعلى أساس هذه المعلومات ومعلومات أخرى من الهولنديين ومن الكتب الصينية. استطاع أراى هاكوسيكى أن يؤلف كتابين الأول أصدره فى خمسة أجزاء فى عام ١٧١٣م واصفا فيه جغرافية العديد من الدول الأجنبية. أما الثانى فقد أصدره فى عام ١٧١٥م، وذكر فيه معلومات هامة عن جغرافية العالم وعن الديانة المسيحية، وقد أسهم هذان الكتابان فى زيادة وعى اليابانيين عن العالم الخارجى.

وقد كان للشوجون الثامن يوشيمونى أيضا دور فى إدخال العلوم الغربية عندما خفف من الحظر المفروض على الكتب الغربية المترجمة للصينية. فلم تكن هناك ترجمات يابانية لكتب الغرب بعد، وبعد يوشيمونى بسنوات قليلة حث العالم أوكى كونيو زميله نورو جنجو Noro Genjo (١٦٩٣م - ١٧٦١م) على تعلم اللغة الهولندية لإدخال

العلوم الغربية عن طريقها ، ومن هنا تطور العلم الغربى من منطلق هولندى ، وكانت أولى العلوم التطبيقية التى اهتم بها العلماء اليابانيون علمى الطب والكيمياء وفى منتصف القرن الثامن عشر قام الطبيب ياماواكى طويو Yamawaki Tōyō (١٧٠٥م - ١٧٦٢م) بإجراء تشريح على جثة محكوم عليه بالإعدام وأصدر أول كتاب تشريح فى اليابان ، كان ذلك بعد خمس سنوات من قيامه بالإشراف على أول عملية تشريح أى فى عام ١٧٥٩م.

وفى عام ١٧٧١م تجمع عدد من الأطباء الذين يمارسون الطب الهولندى أو بالأحرى الطب الغربى عند مقصلة كوزوكاتسو بارا فى منطقة سنجو Senju بأيدو وذلك من أجل رؤية عملية تشريح لجثة شخص أعدم. كان على رأس هؤلاء الأطباء سوجيتا جنباكو Sugita Genpaku (١٧٣٣م - ١٨١٧م) ومعه صديقيه ماينو ريوتاكو Maeno Ryōtaku (١٧٢٣م - ١٨٠٣م) وناكا جاوا آن Nakagawa Junan (١٧٣٩م - ١٧٨٦م). كان هؤلاء الثلاثة قد تقدموا من قبل للحصول على إذن من سلطات المدينة من أجل هذه المشاهدة وكانوا قبل يوم واحد من هذه المشاهدة قد جاءهم فجأة التصريح من مجلس المدينة للذهاب لمكان الإعدام ، وقبل ذلك بشهر واحد كان جنباكو قد حصل على كتاب مبسط للتشريح باللغة الهولندية ولكنه لم يكن يستطيع قراءته ، وبالمصادفة البحتة امتلك صديقه ريوتاكو أيضا نفس الكتاب ، وبمقارنة ما بالكتاب من صور التشريح وما رآه الاثنان فى عملية التشريح لجثامين المحكوم عليهم بالإعدام وجدا أن ما جاء بهذا الكتاب الصادر بالهولندية صحيحا تماما ، وعلى الفور قرر الصديقان ترجمة الكتاب الهولندى إلى اللغة

اليابانية. ولكن كانت هناك معضلة فلم يكن يعرف القليل من الهولندية سوى ريوتاكو فقط ، وحتى هذه المعرفة لم تكن كافية ، فقد تعلم القليل من الهولندية على يد رائد علم الهولنديات أوكي كونيو منذ فترة طويلة ، ثم بعد ذلك تعلمها لفترة ليست طويلة في ناجاساكي ، ولم يكن هناك أستاذ لهذه العلوم يقوم بتدريسها لهم وكذلك لم يكن بيدهم قاموس يعتمدون عليه ، وهكذا نجد أن العلماء اليابانيين قد بذلو جهدا وفيرا من أجل تحصيل العلم الغربي وذلك منذ منتصف القرن الثامن عشر.

على أية حال استطاع الطبيب السالف ذكرهما ومعهما طبيب آخر يدعى كاتسوراوا هوشو Katsuragawa Hoshū (١٧٥٤م - ١٨٠٩م) وآخرون ترجمة كتاب التشريح من الهولندية إلى اليابانية وذلك بعد أربع سنوات من المجهود المضنى تحت عنوان يابانى باسم «الكتاب الجديد فى التشريح Kaitai Shunsho. ويصبح هذا الكتاب هو أول كتاب غربى مترجم فى الطب ، وقد كان لهذه الترجمة معنى كبير فى تاريخ علم التشريح ، والعلم بشكل عام فى تاريخ اليابان.

فقد كان لإدخال الطب الغربى المتقدم إلى اليابان أثره فى تخفيف معاناة الكثير من المرضى اليابانيين ، وكان لسلوك الطبيب الرائع جنباكو وزملائه ومجهوداتهم المضنية أثره البالغ فى حث العديد من طلاب العلم على دراسة الطب الهولندى.

ثم تطرق هذا الاهتمام من جانب طلاب العلم ليس فقط إلى الطب الهولندى فقط ولكن أيضا إلى مختلف العلوم الغربية ، ولذلك تقدمت أيضا علوم مختلفة كانت إلى ذلك الحين متخلفة فى اليابان مثل الفيزياء والكيمياء والفلك والجغرافيا وغيرها من العلوم الطبيعية ومما

يزيد من انبهارنا بجهود هؤلاء العلماء الذين أدخلوا هذه العلوم الغربية إلى اليابان أنهم استطاعوا ذلك برغم العزلة التي فرضتها على نفسها اليابان، أو بالأحرى فرضتها عليها السلطة الحاكمة المتمثلة في عائلة طوكوجاوا في إيدو وحتى لا تقع اليابان تحت سيطرة القوى الغربية الطامعة في احتلال الدول الأخرى، وبفضل هؤلاء العلماء استطاع اليابانيون زيادة معارفهم عن مختلف العلوم وأن يطلوا بأعينهم على ما يحدث خارج اليابان.

وفيما بعد حمل لواء نشر العلم الهولندي (Rangaku) الطبيب وعالم الهولنديات أوتسوكو جنتاكو (Otsuki Gentaku) (١٧٥٧م - ١٨٢٧م) الذى تتلمذ على يد كلا العالمين الكبيرين سوجيتا جنباكو وماينو ريوتاكو، بل وأصبحت مدرسة شيراندو الخاصة التى أنشأها كعبة للعلوم الغربية، وأصبح أوتسوكي عندما كان يعيش فى مقاطعة سنداي أشهر طبيب بها، ولكنه بعد أن انتقل إلى إيدو وتلقيه العلم على يد سوجيتا وريوتاكو أصبح من أشهر أطباء إيدو أيضا. وبسبب علمه الغزير طلب منه الطبيبان السابق ذكرهما أن يقوم بتصحيح الأخطاء التى جاءت بكتابهما الذى قاما بترجمته عن التشريح. ومن ثم أصدر كتاب التشريح المنقح والمصحح وأسماه «كتاب التشريح المصحح» (Juteikaitai Shinsho). وأصدر أيضا كتابا لتعليم اللغة الهولندية أسماه «مدخل إلى العلوم الهولندية» (Rangaku Kaitei) ثم توالى إسهاماته بعد ذلك من أجل تطوير وتقديم العلوم الهولندية.

واشتهر جنتاكو بأنه كان يقيم فى أول يناير من كل عام حفلا على الطريقة الهولندية، ولكن حفل الأول من يناير ١٧٩٤م هو الذى تم

تخليده في لوحة تذكارية باقية حتى اليوم، وفي هذه اللوحة يتجمع تسعة وعشرون من أشهر علماء الهولندية آنذاك، والملاحظ في هذه اللوحة أن الطعام الذى كان موجودا على الطاولة وكذلك الخمر كله أوربى وإلى جانب ذلك ظهرت الشوك والسكاكين التى لم يعتد اليابانيون استعمالها حتى ذلك الوقت، مما يؤكد أن هذه المجموعة كانت تفضل كل ما هو غريب، ولذا أطلق على هذا الاحتفال «عيد رأس السنة الهولندية».

ومن أشهر تلاميذ أوتسووكى جنتاكو، إينامورا سانباكو Inamura Sanphaku (1758م - 1811م) وأوداجاوا جنزوى Uda Gawa Genzui (1755م - 1797م). أما الأول فيرجع إليه الفضل فى إنجاز أول قاموس هولندى - يابانى فى اليابان وذلك فى عام 1796م. أما الثانى فقد قام بتأليف كتاب عن أمراض الباطنة.

ولم ينشط علماء الهولندية فى مدرسة شيراندو بأيدو فقط، ولكن نشط أيضا العديد منهم فى كيوطو وأوساكا وكذلك فى نجاساكي حيث كان يمكنهم الإتصال المباشر بالهولنديين المتواجدين بنجاساكي آنذاك وعن طريق هؤلاء العلماء العظماء ولدت أبحاث جديدة فى مجال العلوم، بل واختراعات عديدة فى مثل ذلك الوقت المبكر من تاريخ اليابان، أو بالأحرى من تاريخ العالم بشكل عام.

ومن بين الاختراعات الهامة والشهيرة، آلة توليد الكهرباء عن طريق الاحتكاك اخترعها العالم العبقرى هيراجا جنناى Hiraga Gennai (1728م - 1779م) وكان هدف جنناى من اختراع هذه الآلة هو إخراج الحرارة من جسم مريض لكى يشفى، وهذا العالم نشط فى عدة مجالات، فقد اكتسب خبرة من الأعشاب الطبية عندما كان يساعد

والده فى عمله بمزرعة الأعشاب الطيبة الخاصة بمقاطعة تاكاماتسو، ثم لما لم تتسع مقاطعته الصغيرة لأحلامه وطموحاته ذهب إلى أيدو وتخصص فى علم النبات واستطاع صنع شهرة فى هذا المجال، ثم درس الفيزياء والكيمياء واستطاع اختراع الترمومتر أيضا، وإلى جانب ذلك اكتشف هيراجا مناجم للمعادن. ولم يكتف بهذه المجالات العلمية بل اقتحم أيضا المجالات الأدبية وكتب نصوصا مسرحية ومقالات، وكان ذا بناع طويل فى هذا المجال أيضا كما أثبتت جدارته فى المجالات العلمية، ونعود ونذكر القارئ الكريم أن ذلك الرجل عاش خلال منتصف القرن الثامن عشر.

إلا أن نهاية هذا العالم العبقري كانت مفاجئة، ففي عام ١٧٧٩م وهو ما يزال فى الثانية والخمسين من عمره زاره مريد من مريديه وربما بسبب العبقرية الزائدة خرج عن وعيه وقام بقتل الطالب الذى كان يزوره، فدخل على إثر هذا الحادث السجن وفيه امتنع عن تناول الطعام حتى وافته المنية.

ومن فرط اللامعقولية لدى هذا العالم سواء فى عبقريته أو مجهوده أو حتى فى أفعاله كتب صديقه العالم والطبيب الشهير سوجيتا جنباكو على مقبرة هيراجا ما يلى:

ياله من شخص غير عادى

كان يفضل الأشياء الغير عادية

وأفعاله أيضا غريبة

ما هذا؟ حتى موته كان غير عادى

وكان لجنناى صديق حميم غريب الأطوار أيضا وهو الرسام والنحات

والأديب شيبا كونان Shiba Kokan (١٧٤٧م - ١٨١٨م)، ويعد مع صديقه جنناى من رواد الرسم على الطراز الغربى فى اليابان، ولم يبرع شيبا فى الرسم والنحت فقط بل برع أيضا فى رسم خريطة العالم وصنع الكرة الأرضية التوضيحية. كذلك ساهم شيبا كونان فى زيادة معارف اليابانيين عن الفلك والجغرافيا.

وتميزت رسومات كونان الزيتية عن سابقه من الفنانين أنها راعت قانون البعد المنظورى الذى يميز به الفن الغربى آنذاك عن الفن اليابانى، ومن أشهر لوحاته الزيتية لوحة «صورة الغربيين» .

ولشيبا كوكان أيضا عدة أعمال أدبية أوضح من خلالها مدى المعاناة التى يقاسيها فقراء اليابان آنذاك نتيجة المجاعات، وعلى النقيض مدى النعيم الذى يرفل فيه أغنياء اليابان وما فى ذلك من ظلم. وقد ظهرت هذه الأعمال التى تدعو لرفع الظلم عن فقراء وبسطاء الناس قبل أن يقول فيلسوف عصر ميجى ومفكره الأكبر فوكوزاوا يوكييتشى مقولته الشهيرة «إن السماء لم تخلق أناسا فوق أناس ولم تخلق أناسا تحت أناس» . وذلك بوضع عشرات من السنوات، ولعل كتابات شيبا وجنناى الداعية للعدل بين المواطنين كان لها تأثير ما على فوكوزاوا وغيره من مفكرى عصر ميجى وغيره ممن دعوا إلى المساواة بين الناس بعضهم البعض.

٤ - العلم وفوبيا الخوف من الغرب :

وصل خوف المسئولين فى حكومة الباكفو من الغرب وقدمه إلى اليابان إلى أقصى مدى له فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وحادثة القبض على العالم الألمانى النابغة المتخصص فى الطب والطبيعة

والعلوم اليابانية فيليب فرانز فون سيبولد Philipp Franz von Siebold (١٧٩٦م - ١٨٦٦م) خير دليل على هذا الرعب الذى أصاب المسئولين اليابانيين آنذاك ، جاء سيبولد إلى اليابان فى عام ١٨٢٣م للعمل كطبيب فى الوكالة التجارية الهولندية التى كانت موجودة فى جزيرة دوشيما بنجاساكي، وفى العام التالى أقام مدرسة خاصة وعيادة للكشف عن المرضى فى ضاحية من ضواحي ناجاساكي تسمى ناروتاكى (Narutaki Juku)، وقد تلقى عدد من الباحثين فى الطب دروسهم على يد سيبولد فى هذه المدرسة، وكان من أشهرهم تاكانو تشوآى (Takano Choei) (١٨٠٤م - ١٨٥٠م) وإيتو جنبوكو (Itō Genboku) (١٨٠٠م - ١٨٧١م) وغيرهما من العلماء الذين أصبح لهم فيما بعد باع كبير فى عالم الطب اليابانى وذلك من كل أنحاء اليابان، وقد زاع عن سيبولد بين اليابانيين آنذاك أنه طبيب ماهر يستطيع بمهارته شفاء المرضى المصابين بالأمراض العضال التى لا شفاء لها، واختلف سيبولد عن الأطباء الذين سبقوه فى العمل فى الوكالة التجارية الهولندية فى أنه لم يعتن فقط بأعضاء هذه الوكالة ولكنه أيضا كان إيجابيا إلى حد بعيد فى الكشف على المرضى اليابانيين وامتاز سيبولد أيضا عن غيره من العلماء الأوربيين فى أنه كان شغوفًا جدا فى البحث فى مختلف العلوم والمعارف اليابانية فبحث فى جغرافية اليابان ومواردها الطبيعية وحيواناتها ونباتاتها وإلى جانب ذلك بحث فى تاريخ اليابان وعادات وتقاليدها أهلها، ويكفى هذا العالم الألمانى فخرا أنه امتلك مفكرة أسماء تحوى نحو ستين من علماء اليابان تتلمذوا على يديه.

ولكننا إذا اعتبرنا حكومة الباكفو فى اليابان تشبه الغز أى المماليك

فى مصر فإن سيبولد سينطبق عليه المثل المصرى القائل «آخرة خدمة الغز علقه»، وهذا ما حدث بالفعل له، وفى عام ١٨٢٨م وعندما أنهى سيبولد مهمته فى اليابان، وفى طريق عودته لبلاده حدثت له واقعة لم تكن فى الحسبان، فعندما فتش المسئولون فى حقائب سيبولد تم اكتشاف أشياء ممنوع إخراجها من اليابان، وللعجب فقد كان من بين الأشياء المحظور نقلها خارج اليابان خريطة اليابان ورداء خاص بأحد أعضاء عائلة الشوجون وغيره من الأشياء التى جلبت الشك فى هذا العالم الجليل، وكانت خريطة اليابان التى كانت فى حقيبته هى أكثر ما أثار حنق المسئولين على سيبولد لأنها تتعلق بقدم السفن السوداء الخاصة بالغرب، وقد سميت بهذا الاسم نظرا لدهنها باللون الأسود، وكانت خريطة اليابان أكثر ما أثار اهتمام سيبولد عندما رآها مع عالم الفلك اليابانى تاكاهاشى جاكياسو Takashashi Gakeyasu (١٧٨٥م - ١٨٢٩م) الذى أعطاها بدوره لسيبولد وفى مقابل هذا أخذ من سيبولد مذكرات الإبحار حول العالم وأدوات فلكية، ولكنه لاقى بسبب هذا أشد العقاب عندما وُضع فى السجن ومات فيه وهو ما زال لم يبلغ الخمسين من عمره، وكنوع من العقاب الجماعى فقد عوقب أيضا تلاميذ جاكياسو، بل وعوقبت أيضا أسرته، أما سيبولد فقد تم وضعه تحت التحقيق العنيف لمدة تزيد على العام، ثم تم طرده من اليابان بعد ذلك، وتم عقاب بعض طلاب العلم الذين كانوا يترددون على مدرسة سيبولد ناروتاكى جوكو، وقد اضطر الطبيب العبقرى تاكانو وآخرون للاختباء عن عيون الباكفو لفترة ما حتى لا يتم القبض عليهم، وكذلك تم إغلاق مدرسة وعبادة ناروتاكى جوكو التى أراد لها سيبولد أن تكون بمثابة منارة لنشر العلوم فى كل أنحاء اليابان.

على أية حال لم يجد سيبولد مقرا من العودة إلى هولندا بعد ذلك وقد لاقى هناك المعاملة التي تليق به كعبرى مثله فحصل على العديد من الأوسمة وكرم بحفاوة، ثم عكف على كتابة العديد من الكتب التي تصف مختلف المجالات التي عركها في اليابان، وساعده في ذلك ما جمعه من مواد علمية كثيرة وما استكتبه لتلاميذه من تقارير، ومن أشهر ما كتبه «اليابان» و«معلومات عن نباتات اليابان» و«معلومات عن الحيوانات في اليابان» وغيرها من الكتب التي تُعرف وتُشرح عن اليابان مما جعله من أقدر علماء العالم الذين أسهموا في هذا المضمار.

وبعد إلغاء أمر الطرد الذي صدر ضد سيبولد في عام ١٨٥٨م وذلك طبقا للمعاهدة التجارية التي أبرمت بين اليابان وهولندا عاد سيبولد الذي كان مشتاقا لليابان مصطحبا معه ابنه الذي كان يدعى ألكسندر، وكان حينئذ في الثالثة والستين من عمره، وكان أكثر ما أسعده لقاءه بزوجته التي كان متزوجا بها أثناء وجوده في ناجاساكي وكانت تدعى أوتاكى وكذلك سعد أيما سعادة بلقاء ابنته التي كانت تدعى أوينى Oine وقد ورثت هذه الفتاة العبقرية عن والدها وأصبحت طبيبة نساء وتوليد يضرب بها المثل في المهارة.

وبعد ذلك ذهب سيبولد إلى أيديو وأسهم في حل الكثير من المشاكل الدبلوماسية بين اليابان وهولندا ثم ترك بعد ذلك اليابان في عام ١٨٦٢م بعد أن أمضى خمس سنوات بها، وتوفي سيبولد عام ١٨٦٦م في ميونيخ، ولكن مصير العلماء اليابانيين الذين تعلموا على يد سيبولد وزملائه بعد ذلك وأسهموا بقدر وافر في الحياة العلمية اليابانية لم يكن مثل سيبولد وحظه الحسن في حصوله على التكريم والأوسمة في

بلاده فقد كان مصيرهم بائسا وتعيسا إلى حد كبير، فقد عاقبت حكومة الباكفو العسكرية عدد من هؤلاء العلماء إما بتحديد إقامتهم أو بوضعهم في السجون وذلك بسبب انتقادهم لها فيما عرف آنذاك بحبس علماء العلوم الغربية، ومن أشهر هؤلاء نجد ناكانو تشوآي، وأتاناى كازان (Watanae kazan ١٧٩٣م - ١٨٤١م) وكوسيكي سان آي Koseki Sanei (١٧٨٧م - ١٨٣٩م).

أما الأول فقد تم وضعه في السجن لمدة سبع سنوات، وذات يوم شب حريق كبير فى السجن فانتهاز الفرصة وهرب من محبسه وظلت الباكفو تبحث عنه بكل جهدها، وحتى يهرب من برائن الباكفو اضطر إلى تغيير ملامحه بصب مادة حارقة على وجهه، وذهب إلى إيدو وافتتح بها عيادة ولكن لسوء حظه استطاع مخبر من الباكفو اكتشاف أمره فلم يجد أمامه سوى الانتحار وكان عمره آنذاك سبعا وأربعين عاما فقط.

أما الثانى فلم يكن حظه أفضل من الأول فقد واجه أيضا نهاية مأساوية، لم يلبث أن أفرج عنه إلا وحدثت إقامته فى بيته وعانى شظف العيش والفقر المدقع وذلك بسبب حرمانه من رتبته وراتبه على السواء، وحاول بعض تلاميذه أن يساعده فافتتحوا معرضا لبيع لوحاته لتوفير بعض المال له ولكن هذا السلوك لم يسلم من انتقاد المسئولين، وبعد تعرضه للعديد من المشاكل ومواجهته لحياة بائسة اضطر هو أيضا للجوء للانتحار بطريقة شق البطن ولم يبلغ بعد الخمسين من عمره.

أما الثالث فلم ينتظر كثيرا لما حدث لزميليه فلم تلبث محاكمات الباكفو للعلماء أن بدأت إلا وقد قام بالانتحار قبل أن تصل إليه نيران

هذه المحاكمات وعقوباتها، وهكذا كان حظ علماء الفترة الأخيرة من عصر إيدو سيئا للغاية.

وربما كان حظ هؤلاء العلماء التمس الذين تحدثنا عنهم للتو هو ما أوقعهم فى براثن محقق ومشرف الباكفو توريثى تادا ترو Torii Tadateru (١٧٩٦م - ١٨٧٣م)، فقد اشتهر عنه الحدة والشدة فى عمله - كمحقق - الذى بدأه فى عام ١٨٣٦م، فكانت تحقيقاته مع العلماء المتخصصين فى العلوم الغربية من أقصى وأشد التحقيقات، والتى مارسها فى عام ١٨٣٩م ثم لم يلبث أن مارس تحقيقاته القاسية إبان إصلاح تنبو ومحاويلته ضبط أحوال مدينة إيدو بعد قمعه للعلماء بسنوات قليلة.

وبعد هذا الغليان الذى انتاب الحياة السياسية فى اليابان بعدة سنوات جاءت سفن الأدميرال البحرى بيرى لتفتح أبواب اليابان للعلاقة مع الغرب ثم بعد مجىء بيرى بنحو خمسة عشر عاما جاءت رياح التغيير الشاملة وذلك بانطلاقة ثورة مييجى الإصلاحية لينطلق معها أيضا علماء اليابان المجتهدون لكى يبنوا دولة اليابان الحديثة، التى سارت جنبا إلى جنب مع الدول المتقدمة تبذرها بل وتتفوق عليها فى أحوال ومجالات كثيرة كما أوضحنا فى كتابنا السابق عن تاريخ اليابان فى حقبة مييجى.

٥- الأدب والفنون فى النصف الثانى من عصر إيدو :

تحدثنا من خلال الفصل الخامس عن ثقافة عصر جنروكو وما تميزت به الأعمال الأدبية لهذه الفترة (١٦٨٨م - ١٧٠٤م) من تناولها بمواضيع تنتقد فيها المجتمع اليابانى آنذاك، كذلك تناولت الأعمال الأدبية لتلك الفترة لمواضيع تعبر فيها عما يدور بصدور الناس من مشاعر وأحاسيس، وهذا النوع - بقصص أوكيوطوشى كما ذكرنا آنفا، واشتهرت فترة

جنروكو بظهور أدياء اليابان العظام مثل سايكاكو وتشيكاماتسو وباتشو. وفي عصر تانوما (١٧٦٧م - ١٧٨٦م) اشتهرت أعمال أدبية فكاهية (Sharebon) كانت تحوى على الكثير من الصور والرسومات وتتخذ من المواخير والموسمات وأماكنهم مسرحا لأحداثها.

وفي فترة كانسى (١٧٨٧م - ١٧٩٣م) اشتهر إلى جانب القصص الفكاهية قصص المشاعر الإنسانية (Ninjobon) والتي كانت تعتمد على حكايات العشق والغرام لأهل أيدو واعتبرت وسيطا بين القصص الفكاهية والقصص المقروءة.

ومنذ منتصف عصر إيدو وعند نهايته تقريبا انتشرت القصص المقروءة وهى التى لا تعتمد على الصور ولا الرسومات وتعتمد فى حيكتهها على الكلمة فقط، ومن أشهر أدياء هذه الفترة القصاص كيوكتى باكين Kyokutei Bakin (١٧٦٧م - ١٨٤٨م) الذى اشتهر بأنه كتب أطول قصة مقروءة فى تاريخ الأدب الروائى اليابانى على الإطلاق واستغرق فى كتابتها ما يزيد عن ربع قرن، ووصل عدد أجزاءها إلى مائة وستة أجزاء. وهذه الرواية تعد من الأدب الذاتى التى تؤكد على المعانى الجميلة فى حياة الإنسان من وفاء وإخلاص واعتراف بالجميل وغيرها.

ومن الروائيين الذين اشتهروا أيضا فى الفترة الأخيرة من عصر إيدو نجد الكاتب جيبين شايكو Jippen Shaikku (١٧٦٥م - ١٨٣١م) الذى كتب أشهر رواية فكاهية فى عصر إيدو، وتحكى هذه الرواية التى تعد من أدب الرحلات المواقف الفكاهية المختلفة التى تعرض لها بطليها وإخفاقاتهما فى رحلتهم عن طريق البحر الشرقى وصولا إلى كيوطو وأوساكا.

ويعد الأديب سانتو كيودن Santo Kyoden (١٧٦١م - ١٨١٦م) من المبدعين الأفاضل في الفترة الأخيرة من عصر إيدو والذي لم يتوقف نشاطه على الأدب فقط ولكن امتد للفن حيث كان من أشهر رسامي لوحات تسمى أوكيو أي Ukiyoe.

ومن شعراء النصف الثاني من عصر إيدو والذين كان لهم باع في هذا المضمار من الأدب الشاعر يوسا بوسون Yosa Buson (١٧١٦م - ١٧٨٣م) وهو من شعراء الهايكو، ومن فرط إعجاب اليابانيين بشعر بوسون شبهوه بشاعر الهايكو العظيم ماتسو أو باشو.

ولن نستطيع ترك الحديث عن شعر الهايكو الذي ازدهر طوال عصر إيدو دون الحديث عن الشاعر العظيم كوباياشى إيسا Kobayasha Issa (١٧٦٣م - ١٨٢٧م). ويمثل إيسا مع باتشو وبوصون أضلاع مثلث الشعراء الثلاثة العظام في شعر الهايكو.

ترك إيسا مسقط رأسه بقرية كاشيوارا وهو في سن الخامسة عشرة ذاهبا إلى إيدو، وبدأ في تعلم شعر الهايكو، وحتى بلغ الحادية والخمسين من عمره ظل يتجول من مكان إلى آخر لاقيا خلال هذه الفترة أشد أنواع المعاناة حتى رجع إلى موطنه الأصلي، وبعد عودته إلى مسقط رأسه قام بتنفيذ وصية والده في تقسيم ورثه بين زوجة أبيه وأخيه الصغير، ولم يبق له سوى قطعة أرض صغيرة وبيت أصغر، وأخيرا وفي عام ١٨١٥م وهو في سن الثانية والخمسين تزوج واستقر بعد رحلة معاناة طويلة.

وبسبب المعاناة التي لاقاها إيسا فقد اتسم شعره بالكثير من الذاتية والشعور بالتعاطف مع الضعفاء من الناس، وقد ترك هذا الشاعر عدة

مجموعات من شعر الهايكو التي يعشقها اليابانيون ، وكذلك ترك عدة مذكرات أدبية شهيرة.

وفيما عدا فترة الشوجون المتقاعد إينارى والتي اتسمت بكثير من الدعة والترف والتي امتدت لمدة أربع سنوات فقط (١٨٣٨م - ١٨٤١م) فقد عانى الكثير من أدياء وشعراء الفترة الأخيرة من عصر إيدو أشد المعاناة من حكومة الباكفو العسكرية عقابا لهم على كتاباتهم فقد عوقب الروائي تاميناجا شونسوى Tamenaga Shunsui (١٧٧٠م - ١٨٤٣م) وذلك بتهمة تحطيم التقاليد بسبب رواياته العاطفية، وكان آنذاك قد بلغ الثانية والخمسين من عمره، ثم لم يلبث أن توفي فى العام التالى ، وعوقب أيضا الروائى ريوتى تانيهيكو Ryutei Tenhiko (١٧٨٣م - ١٨٤٢م) بسبب تناوله لأوضاع حريم الشوجون من زوجات وجوارى وعشيقات.

أما فى الفنون فإن لوحات أوكيو أى التقليدية كانت قد تم اختراعها بيد الرسام هيشيكاوا مورونوبو Hishikawa Moronobu (؟ - ١٦٩٤م) عن طريق طبعها على رسم خشبى (كليشييه) ولكن تميزت أنها كانت تطبع بالحبر الصينى الأسود بالطبع ، وكانت فى الأساس تستخدم كصور تزين الكتب المصورة، وفى بعض الأحيان كان الرسام يضيف الألوان التى يفضلها وتعتبر لوحة مورنوبو الشهيرة «الجميلة التى تلتفت للوراء» مثلا حيا على هذا النوع من اللوحات.

وبعد ذلك وفى فترة كيوهو (١٧١٦م - ١٧٣٦م) تم اختراع نوع جديد من لوحات أوكيو أى وذلك بإضافة اللونين البمبى والأخضر ، ثم بعد ذلك وفى فترة ميوا Meiwa (١٧٦٤م - ١٧٧٢م) استطاع الرسام

سوزوكى هارونوبو (١٧٢٥م - ١٧٧٠م) إنجاز نفس النوع من اللوحات ولكن باستخدام ألوان عديدة، وذلك منذ عام ١٧٦٥م لتصبح هذه اللوحات فنا رائعا يجذب الإعجاب والألباب، ومع استخدام هارونوبو لعدة ألوان مثل الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق وما بين هذه الألوان من ألوان أخرى أصبح شكل اللوحة وكأنه قطعة قماش من القطن مزينة بخيوط جميلة وهى التى تسمى باليابانية نيشيكى ولذلك أطلق على هذا النوع من اللوحات «لوحات الخيوط الجميلة» وبهذا الأسلوب فى الرسم أنجز هارونوبو العديد من لوحات الجميلات اليابانيات التى نالت إعجاب اليابانيين فى عصر يبدو أيما إعجاب. ولأن صور الجميلات هذه وكذلك صور فناني المسرح الذى كان مزدهرا آنذاك تم إخراجها بأعداد كبيرة عن طريق طبعها على الرسم الخشبي فقد كان من المستطاع الحصول عليها بأثمان رخيصة، ولذلك أصبحت تزين حوائط بيوت التجار وسكان المدينة بكثرة.

واستقبلت لوحات أوكيوأى التقليدية عصرها الذهبى بظهور كلا الفنانين كيتاجاوا أوتامارو Kitagawa Utamaro (١٧٥٣م - ١٨٠٦م) وطوشو سايشاراكو Toshu Saisharaku وذلك أثناء إصلاح كانسى (١٧٨٧م - ١٧٩٣م). والأول اشتهر برسم لوحات الجميلات النصفية وكذلك لوحات الممثلين المسرحيين، أما الثانى فاشتهر أنه قام خلال عامى ١٧٩٤م و١٧٩٥م فقط برسم حوالى مائة وأربعين لوحة لفناني المسرح ولاعبى رياضة السومو التقليدية وبعد ذلك اختلفى تماما عن الأنظار ولذلك لا تذكر المراجع التاريخية سنتى ميلاده ووفاته، وتميزت لوحاته بالذاتية الشديدة.

وفى هذا نجد أن أوتامارو قد اختلف كثيرا عمّن قبله من فنانيين حيث كان الفنان فيما سبق يعطى للشخصية التى يرسمها خلفية توضح تفاصيل المكان الموجود به الشخصية المراد رسمها. ونرى ذلك فى لوحات الفنان الكبير هارونوبو، ولكن أوتامارو أعطى جل تركيزه واهتمامه على رسم الجميلة أو مؤدى الحركة المراد رسمه، فاستطاع بذلك توضيح مشاعر وجمال اللوحة.

أما شاراكو فقد برع بحق فى تصوير ملامح أوجه فناني المسرح من عيون تقترب من الحول إلى أفهام ملتوية، ومن ثم فقد خرج شاراكو عن المألوف عن صورة الفنان المسرحى من كونه جميل الملامح إلى صورة وملامح غير مفصلة لهؤلاء النجوم الذين عاشوا فى عصر إيدو، مما جعلهم يغضبون من هذا الفنان الذى ظهر فجأة ثم لم يلبث أن اختفى أيضا فجأة ربما خشية غضبة الفنانين، ولكنه على أية حال أبقى عددا كبيرا من اللوحات كما ذكرنا آنفا، وهذه اللوحات تمثل ثورة فنية عظيمة لليابان.

وبعد هذا الازدهار الكبير للوحات الأوكيوأى بدأت بعد ذلك فى بداية القرن التاسع عشر تشهد ركودا وضعفا رويدا رويدا واقتصر نشاط فناني هذه اللوحات على تقليد من سبقوهم من فنانيين عظام، ثم ظهر نوع جديد من اللوحات يعتمد على المناظر الطبيعية مثل لوحات الرسام كاتسوشىكا هوكاساى Katsushika Hokusai (١٧٦٠م - ١٨٤٩م) الذى اعتمد كثيرا على رسم جبل فوجى الذى يعتبر أشهر الجبال فى اليابان نظرا لاختلاف صورته من فصل لآخر خلال العام الواحد، فكانت أروع لوحات هذا الجبل من إبداعات هذا الرسام.

ومن المناظر الطبيعية الأخرى اشتهرت محطات الإقامة الثلاث والخمسين التي تنتشر في المسافة ما بين منطقة نيبون باشى فى إيدو وحتى منطقة سانجو أوهاشى فى العاصمة التقليدية كيوطو، وهذه المسافة تزيد على الستمائة كيلو متر ولذلك كان من الطبيعي أن تختلف المناظر من مكان لآخر مما أتاح الفرصة لفنان بارع مثل أندو هيروشيغى Ando Hiroshige (١٧٩٧م - ١٨٥٨م) لتصوير وتخليد هذه الأماكن ذات الطبيعة الرائعة التي تُعرف بها اليابان، ولذلك عرف هيروشيغى بأنه أمهر من صور طبيعة اليابان الخلابه وكذلك حياة اليابانيين الذين يعيشون فى مختلف الأماكن وأذاب الاثنين فى لوحة واحدة رائعة.

ومن الرسامين الذين أسهموا فى تحديث فن الرسم والأخذ عن الفنون الغربية اشتهر الفنان ماريوما أوكيو Maruyama Oukyo (١٧٣٣م - ١٧٩٥م). فقد تأثر ماريوما كثيرا بطريقة التصوير الحسى الغربى فى رسم لوحاته ، واتسمت لوحاته التى احتوت مناظرا للجبال والأنهار والطيور وأنشطة الناس العديدة بالموضوعية إلى حد كبير، وبذلك شكّل ماريوما مع هيراجا جنناى وشيباكوكان الذين تحدثنا عنهما آنفا الضلع الثالث لهؤلاء الفنانين الذين تأثروا كثيرا بالفن الحسى الغربى.

* * *

الخاتمة

لعلك أيها القارئ الكريم قد أصابتك الدهشة البالغة بعد قرائتك لهذا الكتاب المتواضع بسبب كم التغييرات التي حدثت لليابان عبر أربعة قرون من الزمان . فقد استعرضنا معا تاريخ هذه الدولة منذ حصولها لأول مرة على البندقية في منتصف القرن السادس عشر ، ثم خروجها من حالة التشرذم والتشاحن بين مختلف مقاطعاتها الكثيرة العدد . وكأن كل مقاطعة دولة مستقلة بذاتها ولها حدودها الخاصة بها ، لدرجة أن كل مقاطعة كانت تفرض جمارك معينة تحددتها بنفسها .

وفي نهاية القرن السادس عشر تم توحيد البلاد تماما على يد الزعيم العصامي طويطومي هيديوشي الذي أكمل مشوار التوحيد الذي بدأه الزعيم القوى أودا نوبوناغا . ونحن نعتبر هذا التوحيد هو الانطلاقة الأولى نحو تكوين دولة اليابان القوية التي انطلقت انطلاقة قوية وفتية نحو العصر الحديث أدهشت العالم أيما إدهاش ، وبالذات انطلاقتها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة بعد انتصارها في حربيها ضد الصين وروسيا .

ولكن هذه الدهشة التي تنتاب القارئ سوف تتبدى عندما يعلم أن اليابانيين يبذلون قصارى جهدهم من أجل بلدهم انطلاقا من مبدأ واحد هو حبهم وانتماءهم الشديد له (Aikokushin) .

ومما لا شك فيه أن أسرة طوكوجاوا التي حكمت اليابان لمدة تزيد على القرنين ونصف القرن عندما قررت فرض العزلة حول اليابان لم

يكن هذا من منطلق حماية نفسها فقط بل كان في المقام الأول من أجل حماية اليابان من خطر الاستعمار الغربي وخطر انتشار معتقدات دينية مخالفة لما يعتقدده اليابانيون من ميثا خلت من السنين . فالاستعمار الغربي بدا في شراسته رهيبا في التهامه لبلاد عديدة لدرجة تناحر دول أوربية عديدة مثل أسبانيا والبرتغال وهولندا وإنجلترا وكذلك فرنسا من أجل ضم مستعمرات جديدة تحت سيطرتهم .

إن نحن أمام قوم يفعلون كل شئ من أجل رفعة بلادهم . فعلى الرغم من هذه العزلة التي ربما كانت إيجابيتها أكثر من سلبياتها فلم تمنع عددا غير قليل من علماء وطلاب العلم اليابانيين أن يتواصلوا مع العالم الغربي منذ منتصف القرن الثامن عشر . فرأينا معا عالمين جليلين هما سوجيتا جنباكو ، وماينو ريوتاكو يقومان مع أطباء آخرون بأول عملية تشريح لجثة رجل محكوم عليه بالإعدام وذلك في عام ١٧٧١م ، ثم قاما بعد ذلك بترجمة أول كتاب في علم التشريح عن الهولندية .

ولنا أن نعرف مدى نمو اليابان عندما نعلم أن تعداد مدينة كأيديو وصل في منتصف عصر إيدو إلى ما يقرب من المليون نسمة . وهذا يعنى أن درجة كبيرة من الرخاء والاقتصاد القوى قد بلغتهما اليابان آنذاك . وهذا ما أدى إلى نمو طبقة غنية من التجار وسكان المدن . وبرغم ذلك لم يمنع هذا النمو الاقتصادي من حدوث العديد من الهوجات والثورات إما بسبب المجاعات أو بسبب زيادة الضرائب التي كانت تفرضها حكومة الباكفو العسكرية وخاصة على المزارعين ، ولم يسلم سكان المدن أيضا من فرض الضرائب عليهم وإن كان حالهم أفضل من الفلاحين . ولذلك تميز عصر إيدو بكثرة عدد هذه الثورات والهوجات حتى وصل عددها إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف هوجة وثورة . وهذا العدد من الثورات لم

يحدث على الإطلاق فى أى عصر آخر من العصور التاريخية اليابانية . هذه الصورة من النشاط المدنى وصعود التجار الأغنياء لكى يصبحوا فى طليعة المجتمع اليابانى آنذاك ، وكذلك تمتع السكان العاديون سواء فى المدن أو فى الريف بقدر كبير من الشجاعة للوقوف بتحدى أمام سلطة حكومة الباكفو . وهذا الوضع الجديد لعامة الشعب جعل المؤرخين يطلقون على عصر إيدو أنه « عصر عامة الشعب » ، وهذا الوضع المتميز ربما اقتدوه إلى حد ما فى عصر طايشو (١٩١٢م - ١٩٢٦م) وإلى حد كبير فى النصف الأول من عصر شوا ، أى منذ عام ١٩١٢م وإلى نهاية الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥م وذلك لطغيان العسكريين على كل الأمور فى البلاد وتراجع الحركة الشعبية بدلا من ذلك .

وقد أدى فشل الحكومة العسكرية فى إيدو فى إصلاح أحوال البلاد والعباد وعدم استطاعتها تجنب الكثير من الثورات سواء كانت فى الريف أو فى الحضر . أدى هذا كله إلى اضطرار زعماء أقوياء سواء كانوا شوجونات أو من مستشارى الشوجون إلى القيام بعدة ثورات إصلاحية كان أشهرها ثورة كيوهو الإصلاحية التى قام بها أعظم شوجون فى عصر إيدو وهو طوكوجاوا يوشيمونى وذلك فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وثورة كانسى الإصلاحية التى قام بها المستشار ماتسودايرا سادانوبو فى نهاية ذات القرن أيضا . ثم ثورة تنبو الإصلاحية التى قام بها المستشار ميزنو تاداكونى فى نهاية عصر إيدو . وهذه الثورات الإصلاحية إن دلت على شىء فهى تدل على حيوية اليابان وسياسيها وحرصهم على تصحيح مسار سياساتهم لإصلاح أحوال بلدهم وذلك منذ زمن بعيد .

فى الفترة من يوليو ١٨٦٧م وحتى أبريل من العام التالى قام سكان

مدينة إيدو بإحداث حالة من الفوضى ، وكانوا يقومون بالرقص متغنيين بأغنية عنوانها « كله ماشى أو كل شىء مباح » إذا جاز القول بالعامية المصرية (Eejanaika) ، وكان الرجال خلال هذه الفوضى يرتدون ملابس النساء . والنساء كن يرتدين ملابس الرجال مؤدبين حركات فوضوية ومضحكة فى ذات الوقت . ويرى العديد من المؤرخين والباحثين فى التاريخ اليابانى أن هذه الحوادث الفوضوية الغربية لم تكن سوى نذير بحدوث تغيير كبير فى المجتمع اليابانى أو ثورة تحدث تغيرا فى مسار الأحداث بالبلاد . وهذا التغيير هو ما عبرت عنه الأحداث التالية فى اليابان ممثلا فى ثورة مييجى الإصلاحية الكبرى التى أخذت بيد اليابان لتصبح فى مصاف الدول المتقدمة فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية .

إننى وأنا أكتب سطور هذه الخاتمة أسترجع ما حدث فى بلدى مصر خلال السنوات القليلة الماضية ، فقد حدث هرج ومرج فى قلب العاصمة « القاهرة » لم يتعود عليه القاهريون أو بالأحرى لم يروه من قبل . وذلك عندما قامت مجموعات من الشباب بأفعال أقل ما يقال عنها إنها أفعال فوضوية وغير أخلاقية ، غير عابئين فى ذلك بأعراف أو تقاليد أو حتى قوانين يمكن أن تعاقبهم على ذلك .

والحقيقة أننى شعرت آنذاك بأن شيئا ما سوف يحدث فى مصر كما حدث فى اليابان فى آخر سنة من عمر عصر إيدو والأحداث التى تحدثنا عنها للتو . وقد صدق حدسى التاريخى ، وكذلك صدقت مقولة أن التاريخ يعيد نفسه ، ولكنه أعاد نفسه هذه المرة فى بلد يبعد عن اليابان بألاف الكيلو مترات وفرق زمان يزيد على القرن ونصف القرن ، وحدث بالفعل تغيير هائل فى المجتمع المصرى وسياسته على السواء .

وهي الأحداث التي تمر بها مصر في يناير من عام ٢٠١١م من مظاهرات وهوجات تقترب من أن تكون صورة مصغرة من الحرب الأهلية تذكرنا بما حدث بعد سقوط أسرة الطوكوجاوا وبدايات عصر مييجي . وذلك من حرب طويلة بين جيش حكومة الباكفو وجيش الحكومة الجديدة (حكومة مييجي) بما عرف بحرب البوشين والتي استمرت لمدة زادت على العام . وكذلك حرب السينان والتي بدأت في عام ١٨٧٧م أي بعد عشر سنوات من بدء عصر مييجي واستمرت لعدة سنوات . وهذه الحرب كانت ضد حكومة مييجي وتعتبر من الحروب الأهلية . وهذا يعني أنه برغم مرور عشر سنوات على بدء عهد جديد وسياسة أيضا جديدة فلم يستتب الأمر لحكومة مييجي . وبرغم نشوب هاتين الحربين الأهليتين الكبيرتين وغيرهما العديد من الانتفاضات التي قامت بعد ثورة مييجي الإصلاحية . إلا أن هذا لم يمنع من تقدم هذه الثورة الإصلاحية الكبرى إلى الأمام وتحقيقها لمعظم أهدافها التي قامت من أجلها كما أوضحنا في كتابنا « اليابان في عصر مييجي » .

وهنا أستطيع أن أقدم هذه التجربة التاريخية اليابانية التي حدثت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي أعياها تماما ، وأقارن بها ما يحدث في مصر خلال السنوات القليلة الفائتة وتلك الأحداث العصيبة الراهنة والتي أكتب في خضمها هذه الخاتمة حيث إنني أكتبها خلال الذكرى الثانية لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ، وهذه المقارنة تجعلني أطمئن كثيرا أن ما سوف يجرى أفضل كثيرا مما سبق ، وذلك بعد انتهاء هذه الأحداث المؤسفة التي تمر بها بلدى مصر خلال هذه الأيام .

فنحن يجب دائما أن نتعلم من التاريخ الكثير من الدروس والعبر التي تجعلنا نستشرف المستقبل الذى سيكون مشرقا بإذن الله تعالى .

المصادر والمراجع

(1) Junia Han Nihon no rekishi (3) Shi. Nō. kō. Shō.

مطبوعات جونيا - تاريخ اليابان (3) المحاربين - المزارعين - الصناع -
التجار .

(2) Obunsha(4) Chōninno Shuppatsu Azuchi momoyama-
Edo jidui

أبونشا (4) - إنطلاقة سكان المدن - عصور أزوتشى موموياما

(3) Owada Tetsuo Nihon No rekishi ga wakuru hon

أوادا تيتسوأو تاريخ اليابان المبسط

(4) Gomi Fumihiko Shosetsu Nihonshi Kenkyu

جومي فوميهكو المبحث المفسر فى تاريخ اليابان

(4) Yasuda Motohisa Nenpyo Yosetsu Nihon No Rekishi

ياسودا موطوهيسا قائمة وتحليل تاريخ اليابان

(5) Yamamoto Tekeo Shinkenkyū Nihonshi

ياماموتو تاكيئو المبحث الجديد فى تاريخ اليابان

(6) Nishio Kanji Kokuminno rekishi

نيشيئو كانجى تاريخ المواطنين

(7) Gakushū Hyakka Daijiten Nihon no rekishi (1)

الموسوعة التعليمية الكبرى - (1) تاريخ اليابان

(8) Friend Japonicia (2) Nihon no rekishi Sekai no rekishi

فريند جابونيكيا (2) تاريخ اليابان - تاريخ العالم

(9) Yomiuri Nihon no rekishi (7) (8) (9)

يومي أورى تاريخ اليابان (7) و (8) و (9)